الحزب السوري القومي الاجتماعي
عمدة الثقافة

"إنّ في النفس السورية كل علمٍ وفنّ وفلسفة، وإنّ فيها كلّ حقّ وخير وجمال"، أنطون سعادة

قليلون هم من يتميّزون في الفنّ عن معاصريهم، فيمتازون ويُبدعون ويرسون المقياس في مضمار فنّهم. زياد الرحباني هو من هؤلاء العظماء الذين كانوا خلّاقين في اللحن والكلمة والتوزيع الموسيقي والمسرح والبرامج الإذاعية والعزف. قد تنتقد منطلقاته الفكرية أو مواقفه السياسية أحيانًا أو حتى أسلوبه بالتعبير عنها، إلا أنه لا يُمكن إنكار موهبته الفطرية التي بدأت بالظهور منذ أن كان في السادسة من عمره حين بدأ والده عاصي الرحباني بتدوين نوطات الهمهمات التي كان يدندنها زياد، قائلًا لعاصي أنه لم يسمعها من قبل، بل هي ما يدور في عقله. وهو من كتب ولحّن في عمر الرابعة عشرة أول أغنية لخالته هدى، ثمّ لحن وهو بعمر السابعة عشرة عام 1973 أول أغنية للسيدة فيروز وهي "سألوني الناس" الشهيرة. وفي العام نفسه، كتب مسرحية "سهرية" مؤلفًا كل ألحانها وناظمًا أغانيها. تَبِعها مسرحية "نزل السرور"، بداية الخطّ المسرحي الخاص بزياد، ومن ثمّ "بالنسبة لبكرا شو" التي ألفها بعمر الإثني وعشرين عامًا، منتقدًا أساسًا من أساسيات "الاقتصاد في لبنان" ووجهًا من أوجه فساده في حبكة درامية متكاملة، توضح معاناة عائلة تركت "الضيعة" لتحاول الاستقرار في "المدينة" أملًا بمستقبل أفضل، إلا أنّ جشع أحد أوجه الاقطاع ("الرأسمالية" بمفهوم زياد) وفساد الأخلاق وآفة التحرّش وإدّعاء الأدب الفارغ وآثار غلاء المعيشة...، تودي بالعائلة الى السجن والتفكّك الأسري. ومسرحية "فيلم أميركي طويل" التي ألفها عام 1980 وهو بعمر الأربعة والعشرين عامًا، والتي تستشرف الاجتياح اليهودي بعد عامين (1982) وتُعرّي طرفي النزاع المُسلّح و"قادته" على كذبهم ومتاجرتهم بأرواح مرؤوسيهم، وتبيّن عمق أزمة "النظام اللبناني" وهشاشة "السلم الأهلي"، مُبيّنًا واقع لبنان الممزّق ، ومحلّلًا التناقض بين توافق أمراء الحرب فيما بينهم، مقابل الاصطراع المُفتعل فيما بين أتباعهم. كما توضح تفشّي أمراض الأنانية والطائفية في نفوس المرضاء وكذلك في نفوس من يدّعون الوعيّ والفهم والعلم (الأطباء والممرضين ومساعديهم في المسرحية). أما أبرز ما تضمنته مسرحية "شي فاشل" فهو حضور مسرحيتين في مسرحية واحدة، حيث قام الجمهور أكثر من مرة بتبادل الشتائم الطائفية أثناء تقديمها!! أما مسرحية "بخصوص الكرامة والشعب العنيد"، والتي نبّهت الى هشاشة "السلم الأهلي" الكاذب، وفساد المواطنين، واستشرفت التدخّل التركي في الشمال اللبناني وإعادة ظهور أشكال بشرية وحشية شبيهة بالإنسان الأول قبل الزمن التاريخي الجلي. أما "لولا فسحة الأمل" فهي نسخة عن سابقتها شكلًا، حيث أن جمهوره لم يتقبّل "بخصوص الكرامة والشعب العنيد" والتي تعكس سوداوية المشهد اللبناني كما رآه زياد، حيث أن "الحرب اللبنانية قد انتهت" بمنظورهم، وكأنهم أرادوا من زياد مسرحية تُحاكي ما يريدون هم أن يروا، لا ما يرى زياد أنه آتٍ لا محالة...

من مظاهر عبقرية زياد الرحباني في المسرح هي انعكاس أفكاره عبر المسرحيات التي قدّمها في سنٍّ مبكرة جدًا، مُبيّنًا فهمه للواقع كما هو دون تجميل، وبأسلوب لم يألفه المسرح على امتداد سورية والعالم العربي. كما أنها صالحة لأكثر من زمن وكيان و"نظام سياسي".

أما زياد الرحباني، فهو لا يُعرّف نفسه إلا كونه "موسيقي" فقط لا غير. وفي الموسيقى، نشأ على مدرسة ما يُسمّى بالرحابنة عامة، و"الأخوين الرحباني" على وجه الخصوص، مع تأثير واضح لوالده عاصي. وكانت بداية ألحانه (كما هو الحال من ناحية المسرح ومسرحية "سهرية") امتدادًا صلبًا وواضحًا للمدرسة الرحبانية الأولى التي صاغ أسسها عاصي. ثمّ تأثر موسيقيًا بـ سيّد درويش وزكي ناصيف وفليمون وهبة، الى جانب تأثره بموسيقات لاتينية وكردية. إنما برز خروجه عن تجربته الأولى وبدء تجربة جديدة خاصة به واضحًا مع "بهالشكل" عام 1983 واسطوانة "هدوء نسبي" عام 1985، علمًا أن بزور ذلك الخروج كان قد بدأ عبر بعض المعزوفات أواخر سبعينات القرن الماضي (اسطوانة أبو علي، وموسيقى مسرحية "بالنسبة لبكرا شو"). تراجع عن تسمية موسيقاه بـ"الجاز الشرقي"، وصرّح أنه يعتبر أن الجملة الموسيقية بحدّ ذاتها، هي الأساس لاعتبارها بشكل عام، موسيقى شرقية أو غربية، ولا علاقة لأنواع الآلات الموسيقية المعتمدة. وبالتالي، وبالنسبة له، لا يجوز تصنيف الموسيقى بناءً على الآلات الموسيقية التي تؤدي اللحن. كان رائدًا في الإبداع والخلق والتجديد. كما كانت بعض موسيقاه لوحة كاملة يُبرز فيها زياد تفاصيل كلّ ما يدور في ذهنه عند تأليفها: يمكن سماع صوت الحديد في موسيقى "المعمل" في اسطوانة هدوء نسبي، وسماع صوت طقطقة الصحون والمعالق في أغنية "شو عدا ما بدا"، وسماع أصوات الطبيعة في أغنية "ما شاورت حالي"... لم يعزف زياد المقطوعة ذاتها مرتين دون تحديث في التوزيع الموسيقي. لا يوجد تكرار في ألحان زياد. لا يوجد لحن لزياد ممكن أن يُذكرك بلحن آخر لمؤلّف آخر. لا يمكن أن تستمع الى لحن لزياد دون أن تدرك أنه لزياد، أو من توزيع زياد. لا يوجد موسيقى من توزيع زياد ولحنها الأصلي لمؤلف آخر، دون ذكر ذلك من قبله بشكل واضح وصريح (لبيروت، روح خبّر). أي مُلحّن تجرأ على قيام آلة البزق بعزف اللحن الأساسي، في حين البيانو يعزف اللحن الثانوي في خلفية الأغنية (عهدير البوسطة)؟

لا يُمكن اختزال زياد الرحباني الموسيقي والفنان ببضعة كلمات وسطور. وللمتابع لسيرته ومسيرته، لا غرابة لعدم إعلان الحداد الرسمي من قبل الحكومة اللبنانية على وفاته. لا ريب أن فقدان السيادة القومية قد تراجع لمستويات دُنيا، وباتت أنظمتنا لا تجرؤ على إعلان يوم حداد ولا تجرؤ على تنكيس الأعلام، حدادًا على من لم يتمكّن من مرافقة والدته السيدة فيروز الى أميركانية لإقامة حفل موسيقي، فقد تمنّعت عن إعطائه تأشيرة دخول. لكن أنطون وزكريا ورشيد ونور وعيسى والضابط، ليسوا بحاجة لتأشيرة دخول للخلود في نفوس كلّ محبّيه. فهو كان وسيبقى فنان كلّ الشعب، فقد لحّن وكتب كلمات أغانيه ومسرحياته انطلاقًا من لغة الناس على فطرتها، دون عناء أو جهد. فتقبّلته واحدًا منهم، وأحبّته. وبعد أن أصبحت تعابيرهم موجودة على سجيّتها في مسرحياته وأغانيه، نسبوها له، وأمست خبزهم اليوميّ، صباحًا ومساء.

لتحيَ سورية وليحيَ سعاده

المركز، في 28 تمّوز 2025

عميد الثقافة
الرفيق الياس الحايك

أقرّ نشر هذه الرسالة حضرة رئيس الحزب الرفيق الدكتور كنعان الخوري حنّا